

تأليف
عبد الله الطيّب

دار الفكر
بيروت

الدار السودانية
الخرطوم

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين وله الحمد أولاً وأخيراً
وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم
وبعد فهذه كلمة موجزة عن قصيدة علقمة بن عبدة التي مطلعها :

طَحَا بِكَ قَلْبٌ في الْحِسَانِ طَرُوبُ

وهذا حين نبدأ وبالله التوفيق :

تمهيد

عَلْقَمة بْنُ عَبَدَةَ من شعراء الجاهلية المقدمين . اسمه فيما ذكروا علقمة بن عَبَدَةَ بن النعمانِ بن قيسٍ ينتهي نسبه إلى رَبيعَةِ الجوع من بني تميم . وبنو تميم كانوا من كبريات القبائل مساكنهم شرق الجزيرة العربية فيما بين نجد والعراق.واشتهرت تميم بعدد من الشعراء والسادة والفرسانوالفصحاء في الجاهلية والإسلام .

وحضر علقمة زمان امْرِىءِ القيس الكنْديّ وكان له صديقاً . قالوا : فزاره ذات يوم وقال أحدهما لصاحبه « أيّنا أشْعَرُ ؟ » فاختلفا ، وصنع كل

منهما قصيدة ، واحتكما إلى أم جُنْدَبٍ الطائية امرأةِ امرىء القيس يسألانها أيهما فرسه أجود . وكان كل منهما نعتَ في قصيدته فرسه وناقته . فحكمت لعلقمة أنّ فرسه أجود لأنه لم يَزْجُرْ ولم يُحَرِّكْ ساقيه ولأنه جَاهَرَ الصَّيْدَ فلم يَسْتُرْ حصانه بجُنّةٍ أي بستر يخفيه فدلّ بذلك على سرعته وثقته هو بذلك منه ، وذلك قوله :

إذا ما اقتنصنا لم نَقُدْهُ بِجُنَّةٍ
ولكن نناديِ من بعيدٍ ألا ارْكَبِ

فغضب امروء القيس واتهمهما بالميل إلى علقمة وطلّقها ، فتزوجها علقمة بعده ، قالوا فلذلك لُقّبَ علقمةَ الْفَحْلَ ، وقالوا في سبب تلقيبهِ الفَحْلَ أقوالاً غير هذا .

وتذكر بعض الروايات أنّ حسّان بن ثابت لقي علقمة والنابغة معاً عند بعض ملوك غسّانَ بالشأم . وهذه الرواية كأنها تريد أن ترمز إلى أن منزلة حسان في الشعر قريبة من منزلة علقمة والنابغة . وبعيدٌ حقاً أن يكون قد لقيهما معاً لتقدم علقمة عليهما في الزمان والسن بكثير والله تعالى أعلم .

واشتهر علقمة بثلاثِ قصائدَ ، هنّ البائية التي بارى بها امرأ القيس ومطلعها :

ذَهَبْتَ من الهِجْرانِ في كلِّ مَذْهَبٍ
ولم يَكُ حقًّا طُولُ هٰذا التجنُّبُ

وقصيدته الميمية التي مطلعها :

هل ما عَلِمْتَ وما اسْتُودِعْتَ مَكْتُوم
أَم حَبْلُها إذ نَأَتْكَ الْيَوْمَ مصروم

وبائيته :

طَحا بك قَلْبٌ في الْحِسانِ طَرُوب
بُعَيْدَ الشَّباب عَصْرَ حانَ مَشِيبُ

ووصفهن الناقد العظيم محمد بن سلاّم الجُمَحِيٌّ في كتابه طبقات فحول الشعراء بأنهن « ثلاثٌ روائعُ جيادٌ لا يفوقهن شعْرٌ » ثم وصف بقية شعره غيرهن فقال : « ولا شيء بَعْدَهُنّ يذكر » .

وذكر صاحب كتاب الأغاني أن علقمة وفد على قُرَيْشٍ بمكة فأنشدهم ميميته ، فقالوا له : « هذه سمْطُ الدّهْرِ » — والسّمْطُ هو العقد — يستحسنونها بذلك . ثم وفد عليهم عاماً آخر فأنشدهم بائيته « طحا بك قلب » فاستحسنوها مع الميمية وقالوا هاتان سمطا الدهر .

قالوا وسبب إنشاءِ علقمة البائية أنّ أخاً له يُدْعى شَأساً أُسِرَ يوم عَيْنِ أُبَاغَ . وكان يوم عينَ أُباغ هذا معركة بين ملك الشأم الحارث بن أبي شمّر الغسّانيّ وملك الحيرَةِ المنذر بن ماء السماء اللّخْميّ ، في شهر يونية من سنة ٥٥٤ م ، وانتصر الحارثُ وقتل المنذر . فنظم علقمة هذه القصيدة يتشفع بها لدى الحارث على عادة الشعراء العرب في التماس الشفاعات عند عظماء الرجال .

هذا وتأريخ يومعين أُباغ مذكور في أخبار دولة الروم الشرقيةومن معرفته نستدل على أن علقمةَ بنَ عَبدَةَ وامرأ القيس ومعاصريهما كانوا من رجالات العرب في النصف الأول من القرن السادس الميلادي أو حوالي ذلك . والله تعالى أعلم .

القصيدة(*)

قصيدة علقمة من البحر الطويل الضرب الثالث قافية المتواتر[1] :

دَحا بكَ قَلْبٌ في الْحِسانِ طَرُوب

بُعَيْدَ الشَّبابِ عَصْرَ حانَ مَشِيبُ

من قصائد المدح الجاهلي . وكانوا يبدئونه بالنسيب أي الغزل وذكر الأحبة والديار ، غرضهم بذلك أن يرفعوا حجاب الكلفة بين الشاعر والممدوح ليطرب ويستمع إليه . ثم يذكر الشاعر رحلته إلى الممدوح وما لقي فيها من مشقة . فإذا فعل ذلك أوجب عليه حقّ الاكرام من أجل أنه قصده ولقي في ذلك تعباً. ثم بعد هذا يأخذ الشاعر في المدح ويذكر حاجته . وعلى الممدوح أن يستجيب إليه وألاّ يردّه خائباً . وقد كان الشعراء في ذلك الزمان أقوى وسائل الدعاية

(*) المفضليات (تحقيق ليال) شرح ابن الأنباري طبعة بيروت ص ٧٦٢ ، مختار الشعر الجاهلي ، مصر ١٩٤٨ شرح السقا ج ١ — ص ٤١٨ — ومصر ١٣٧١ هـ تحقيق الصعيدي ص ١١١ .

(١) البحر الطويل أول أوزان الشعر وله ثلاثة أضرب أي أنواع وضرب بيت الشعر يعرف بمعرفة تفعيلات الوزن التي في عجزه . والمتواتر من القوافي هو حرف متحرك قبله ساكن وبعده ساكن مثل مشيب فالباء قبلها ياء وبعدها واو والقوافي أنواع ، المتواتر أولها وأكثرها .

(كما نقول في مصطلحنا العصري) ، إذ كان الناس يحفظون أشعارهم حفظاً عن ظهر قلب ويتناقلونها من طريق الرواية ويتناشدونها في المواسم والأسواق وعند موارد المياه وربما قيّدُوها بالكتابة في الصحائف وعلقوها في الكعبة ان استحسنوها غاية الاستحسان . ومما يدلك على أهمية الشعراء عند العرب في ذلك العصر أن قُرَيْشاً لمّا بلغهم أن الأعشى الشاعر قد مدح رسول الله ﷺ ويريد أن يَفِدَ عليه تعرّضوا له في الطريق وأعطوه مائة من الإبل ومنعوه أن يفد على رسول الله في ذلك العام خوفاً منهم أن يكون في وفوده عليه هزيمةٌ لهم . وقد كان من سوء بَخْتِ الأعشى أنه مات من عامه ذلك فلم يُتَحْ له لقاء الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام .

هذا وقد افْتَنَّ علقمة في صياغة قصيدته افتناناً يدل على قوة ملكة، واقتدار نادر .

كان كما قدمنا من بني تميم وهؤلاء كانوا في حَيِّزِ ملوك الحيرَةِ موالين لهم ينصرونهم أحياناً كثيرة على ملوك غسّانَ. وكان منهم جماعة مع المنذر بن ماء السماء في يوم عَيْنِ أُبَاغَ ، فمنهم من قتل معه ومنهم من أسر ، وكان من هؤلاء شَأسٌ أخو الشاعر . فعَمَدَ الشاعر إلى تضمين النسيب الذي بدأ به قصيدته معاني تُشْعِرُ بتهيّبِهِ هو للقاء الحارث . وخلط ذلك بلَوْنٍ من الفكاهة لأن الفكاهة تشرح الصدور وتعين على إزالة الحُجُبِ التي بين النفوس ولا ريب أن عداوة رهط علقمة للحارث ورهطه وحربهم إياهم قد كانت ضَرْباً من الحجاب الكثيف . ومع الفكاهة أشاع علقمة في مذهب أسلوبه روحاً من الحزن الشخصي فيه إيحاءٌ بالشعور بالغربة والوحشة والضعف والانفراد... وهذا كما لا يخفى يدعو إلى العطف ويستدر دمع الرثاء .

قال :

١) طَحَا بِكَ قَلْبٌ فِي الْحِسَانِ طَرُوبُ
بُعَيْدَ الشَّبَابِ عَصْرَ حَانَ مَشِيبُ

هذا هو المطلع ، وهو جيد ، وإذا كان مطلع القصيدة جيداً سمت العرب ذلك « براعة الاستهلال » وعدته من المحاسن .

الألفاظ :

طحا أي طمح ، المضارع يَطْحُو ويَطْحَى طَحْواً وطَحْياً . طحا بك قلبك في الحب : ذهب بك كل مذهب . **بُعَيْدَ** : تصغير **بعد** ، والمعنى يحتمل بعد الشباب بزمان طويل ، أو بعده بزمان قليل . والأول أرجح لأن الشاعر يخبرنا أن المشيب قد حان وأن رأسه قد شاب.واستعماله لفظ التصغير « بعيد » فيه تلميح لموقفه .

عَصْرَ حان مشيب: أي في عصر أن حان المشيب أي في وقت حين المشيب؛ ظرف مبني على الفتح في محل نصب وسبب بنائه على الفتح أنه مضاف إلى الجملة الفعلية « **حان مشيب** » التي أولها فعل ماض مبني على الفتح وجملة **حان مشيب** كلها في محل جر .

المعنى :

يقول الشاعر وقد جرد من نفسه شخصاً آخر : لقد طمح قلبك الطروب إلى النساء الجميلات وذهب بك كل مذهب في عشقهن بعد أن تولى زمان الشباب وجاء زمان المشيب .

٢) يُكَلِّفُنِي لَيْلَى وَقَدْ شَطَّ وَلْيُهَا
وَعَادَتْ عَوادٍ بَيْنَنَا وَخُطُوبُ

الألفاظ :

ليلى : علم كنى به عن المحبوبة . **شَطّ** يَشِطّ ، بَعُد يَبْعُد ، الشين مكسورة في المضارع . **وَلْيُها** : يعني قربها وجوارها وعهد مودتها وأصله من قولك كانت دارها تلي دارنا وكنا نزورها . **عَادَتْ عَوادٍ** : عاقت عوائق

تقول عَدَاهُ عن كذا وعاده عن كذا وعاداه عن كذا أي صرفه عنه وشغله عنه وعوادي الدهر عوائقه وموانعه وشواغله . **خطوب** : شؤون وأمور .

المعنى :

ان قلبي يكلفني حبّ هذه المرأة – ليلى – بعدما صارت دارها بعيدة وانقضى جوارها ومزارها وعاقت عوائق الدهر وصروفه بيننا ففرقتنا .

٣) مُنَعَّمَةٌ لا يُسْتَطَاعُ كَلَامُها
عَلَى بَابِها مِنْ أَنْ تُزارَ رَقِيبُ (١)

الألفاظ :

ويروى « لا يستطاع طِلابُها » **وكلامها** أجود لأن آخر البيت يدلّ على أن طلابها لا يستطاع . **على بابها من أن تزار** : أي من أجل خوف أن تزار . أي من أجْل ألاّ تُزَارَ ونحو هذا كثير جيد في أسلوب العرب ، مثلا : ذكّرْتُكَ بكذا وكذا أنْ تَنْسَى : أي خوف أن تَنْسى أي لئلا تَنْسى . **رقيب** : حافظ .

المعنى :

أي هي امرأة مُنَعّمة مصونة مخدومة ملكة لها قصرهي محجوبة فيه وله باب ، عنده حافظ رقيب يمنع من زيارتها فلا سبيل إلى كلامها ... ومع هذا فإن قلبي يكلفني حُبّها .

لا يخفى أن هذه المحْبُوبَة المنعّمة التي لا يُسْتطاع القُرْب منها فيها شيءٌ من الرمز إلى منزلة الممدوح وهو ملك مهيب .

---

(١) في المفضليات الكبير لابن الأنباري : كلامها مضبوطة بكسر الكاف ويجوز على تأويل أنه مصدر بمعنى المفاعلة أو مخفف من كلام بكسر الكاف وتشديد اللام والصواب الفتح إذ هو الذي في الديوان وفي القرآن .

٤) إِذا غَابَ عَنْهَا الْبَعْلُ لم تُفْشِ سِرَّهُ
وَتُرْضِي إِيابَ البَعْلِ حِينَ يَئُوبُ

الألفاظ :

البعل : الزوج وأصل معنى البعل السيد . تُرْضي بضم التاء مضارع الفعل الرباعي أرْضى وروي بفتح التاء مضارع الثلاثي رَضِيَ أي هي تُسَرّ بعودة زوجها والأول أجود وبه قال العلماء الأولون . والله أعلم . يئوب مضارع آب : رَجَعَ ، الهمزة من « يئوب » تكتب على نبرة .

المعنى :

هذا مدح للمحبوبة بأنها من الحرائر اللاتي إحداهن إذا غاب عنها زوجها حفظت سرّه بالعفاف والصون وإذا عاد أرضته بما كان منها من حسن سيرتها وتحببها إليه ولطفها معه حين يئوب .

الشاعر كما ترى ههنا يخص محبوبته بصفات من رفيعات الفضائل . وهذا من كلام علقمة ، وما شابهه من كلام الجاهليين مثل قول الشنفرى :

لَقَدْ أعْجَبَتْنِي لا سَقُوطاً قِنَاعُها إذا ما مَشَتْ وَلَا بِذَاتِ تَلَفُّتِ

ينقض مزاعم القائلين بأن غزل العرب القدماء كان كله حسياً ماديا.فالصون والعفاف ولطف العشرة والهيبة كل ذلك من مكارم الأخلاق وليس مما يصح أن يوصف بأنه حس مادّي لا غير . والله تعالى أعلم .

٥) فَلا تَعْدِلِي بَيْنِي وَبَيْنَ مُغَمَّرٍ
سَقَتْكِ رَوَايَا الْمُزْنِ حِينَ تَصُوبُ

الألفاظ :

لا تعدلي بيني وبين : « لا تسوّي بيني وبين . عِدْلُ الشيءِ بكسر العين وسكون الدال : مُساوِيهِ من نوعه ، هذا الحروف عِدْلُ ذلك الحروفِ . وعَدْلُ الشيءِ بفتح العين وسكون الدال ما ساواه في القيمة والقدر وليس من نوعه : هذا المقدار من النقود عَدْلُ ذلك الحروف . مُغَمَّر : بضم الميم وفتح الغين وتشديد الميم الثانية وفتحها بصيغة اسم المفعول : الشخص الذي لم يجرب الأمور فهو ضعيف الرأي لذلك . ومثله : غُمْر بضم الغين وسكون الميم ، تقول هو غُمْرٌ بَيِّن الغَمارَةِ : أي قليل التجارب ضعيف الرأي .
رَوَايا المُزْن : السحائب الحاملات الماء . المُزْن بضم الميم وسكون الزاي : أحسن السحاب ، واحدته مُزْنة . والراوية من المزن هي الممتلئة ماء . والروايا جمع راوية . واصل الراوية القربة التي يُحْمَلُ فيها الماء وأيضاً الدّابة التي يحمل عليها الماء . سقتك روايا المزن الخ : دعاء والعرب تقول سقى وأسقى ثلاثي ورباعي وكلاهما جيد . تصوب : تجيء بالمطر .

المعنى :

يخاطب الشاعر محبوبته يتقرب إليها بمودته ويُزكّي نفسه لديها فيقول : لا تسوّي بيني وبين آخر من الرجال ضعيف العقل ليست له تجربتي وفضلي ، يا سَقَتْكِ السحابات الجميلات الحافلات بالماء حين تمطر .

وكانت العرب تدعو بالسقيا لمن تحب ، تجعل ذلك رمزاً للخصب والعافية والنعيم . ودعاء الشاعر هنا بالسقيا فيه تعبير عن لوعته وصبابته وانفعاله . ثم كرّر الدعاء بالسقيا في البيت التالي تأكيداً لهذا المعنى .

٦) سَقَاكِ يمانٍ ذو حَبِيٍّ وعارِضٌ
تَخِفُّ بِهِ جُنْحَ الْعَشِيِّ جَنُوبُ

الألفاظ :

يمانٍ : أي سحاب أو مطر منسوب إلى اليمن أي آت من جهة اليمن . وقالوا كان المطر إذا ظهر من جهة اليمن فقلّما يُخْلِف، مثل «العَبّادِي» عندنا . **ذو حَبِيٍّ** أي صاحب حَبِيٍّ . ذو بمعنى صاحب من الأسماء الخمسة صفة مرفوعة بالواو نيابة عن الضمة ، يمانٍ الفاعل الموصوف ، مرفوعة بالضمة المقدرة للثقل لأنها اسم منقوص، يمانٍ فاعل سقاك . **حَبِيّ** بفتح الحاء وكسر الباء والياء مشددة على وزن فعيل : الحبيّ هو السحاب الثقيل الداني جداً من الأرض وكأنه يحبو . **ذو حَبِيٍّ** : أي مطر فيه سحاب هكذا صفته . **عارض:** السحاب الذي يُرى في بعض نواحي السماء عشية ثم يصبح من الغد وقد استوى وحبا بعضه إلى بعض ، وسموه عارضاً لاعتراضه في بعض أرجاء السماء عند أوّل أمْرِه . **جُنْحَ العَشِيّ** : في أول الليل . **الجُنْح** بضم الجيم وبكسرها أيضاً ، وسكون النون، الطائفة من الليل . **العَشِيّ**: جمع عشية وهي آخر النهار حين دنو الليل . جُنْح : منصوبة على الظرفية . جَنُوب : ريح تأتي من جهة الجنوب وقالوا كانت العَرَبُ تحب الجنوب لأنها تخف بالسحاب وتجمعه فيمطر والشّمال تفرقه . (الشّمال للريح بفتح الشين وللجهة بكسرها) .

المعنى :

يدعو الشاعر لمحبوبته فيقول : سقاك وسقى ديارك غيث يجيء من جهة اليمن ذو سحاب مملوء ماءً يكاد يحبو على وجه الأرض من قربه منها ، وسقاك سحاب يعترض في السماء فتخف به ريح الجنوب من أول الليل فتجمعه فيمطر.

قالوا وخص الشاعر أوقات العشية لأن مطر الليل أنفع من مطر النهار . هذا وفي ذكر الشاعر للسحاب والمطر ولوعته بالدعاء نوع من الكناية عن بكائه هو ودمعه المدرار . وإذ بلغ الشاعر هذا المدى من الوجد بدا له أن يزجر نَفْسَه ويحملها على وجه من وجوه الجد .

٧) وَمَا أَنْتَ أَمْ مَّا ذِكْرُها رَبَعِيَّةً
يُخَطُّ لَهَا مِن ثَرْمَدَاءَ قَلِيبُ

الألفاظ :

ما أنت أم ما ذكرها : أي مالك تَذْكُرها . تقول العرب ما أنت وكذا ومالك وكذا وما أنت وما كذا ... مثلاً ما أنت والحديث في ما لا يعنيك أي مالك تتحدث في ما لا يعنيك . **رَبَعِيّة** : أي من بني ربيعة ويجوز أنها كانت من قومه ربيعة الجوع أو بني ربيعة آخرين من فروع قبيلة تميم . والنسبة إلى ربيعة رَبَعِيّ بفتح الراء والباء ورَبَعِيّةً منصوبة على الحال ويجوز أنها تمييز **ثَرْمَدَاء** موضع . قليب بئر .

المعنى :

مالك بعد الشيب والبعد والعوائق ومع الذي تعلمه من عُسْرِ المنال ، تتذكر هذه المرأة من بني ربيعة التي قد حُفِرت لها بئر عند الموضع الذي يقال له ثرمداء فهي مقيمة هناك ليس إليها من سبيل ؟

ثم بعد هذه الملامة لنفسه أدخل علقمة في نسيبه عُنْصُر فكاهة يتقرب به من ممدوحه ومن سامعيه بعد أن أثّر عليهم بالذي أظهره عند دعائه بالسّقْيا وعند نعته ليلى من لوعة الصبابة ووجد الغرام .

٨) فَإِنْ تَسْأَلُونِي بِالنِّساءِ فَإِنَّنِي
خَبِيرٌ بِأَدْوَاءِ النِّساءِ طَبِيبُ

٩) إذا شَابَ رأسُ المرْءِ أَوْ قَلَّ مَالُهُ
فَلَيْسَ لَهُ في وُدِّهِنَّ نَصِيبُ

١٠) يُرِدْنَ ثَرَاءَ المالِ حَيْثُ عَلِمْنَهُ
وَشَرْخُ الشَّبَابِ عِنْدَهُـنَّ عَجِيبُ

الألفاظ :

فإن تسألوني بالنساء: أي عن النساء ، قال تعالى : سأل سائل بعذاب واقع أي عن عذاب واقع . **النِّساء** جمع امرأة ولا مفرد له من لفظه ، وكذلك النِّسْوَة بكسر النون ويجوز ضَمّها والنِّسْوان بكسر النون . **أدواء** : جمع داء وهو المرض وعنى ههنا بأحوال النساء وأمراض قلوبهن . **ثراءَ المال** : كَثْرة المال ، الثراء كثرة المال وأضافه هنا إلى المال تأكيداً وتوضيحاً . ومال ثري أي كثير . **شَرْخُ الشّبابِ** أول الشباب .

المعنى :

إن تسألوني عن النساء فأنا عارف بعللهن ، طبيب بها وبكيفيات علاجها . وذلك أن من شاب أو افتقر فليس له نصيبٌ من مودتهن ، لأنهن يُفَضّلْن كثرة المال حيثما علمنها أي في أي مكان علمن وجودها فيه ، فذلك خير عندهن من المكان الذي لا يوجد فيه المال الكثير . ثم للشبان عندهن موضع أثير وأول الشباب بوجه خاص شديد الفتنة لقلوبهن .

إلى ههنا ينتهي قسم النسيب من قصيدة علقمة هذه . وقد رأيت أنه بدأه بالحنين إلى شيء عزيز بعد فوات أوانه ونَعَتَ امرأةً حُرّةً ناعمة مُتْرَفةً ذاتَ مكارم مضروب(١) عليها الحجابُ . ثم لام نفسه على هذا الشوق على حين شَيْب الرأس وقلة المال . وأخذ يزجر نفسه ويسليها بالحكمة الممزوجة بروح الفكاهة. وإذ النساءُ يُؤْثِرْنَ المال وشرخ الشباب فلا سبيل إلى نيل وصل من يتوق إليها قلبه منهن الآن . فليطلب العزاء وَلْيُسَلِّ فُؤادَهُ بضرب من السلوى عن هذه الفاتنة البعيدة الحلوب .

(١) بالرفع خبر الحجاب والنصب جائز .

١١) فَدَعْهَا وسَلِّ النَّفْسَ مِنْكَ بِجَسْرَةٍ
كَهَمِّكَ فِيهـــا بالرِّدَافِ خَبِيبُ

الألفاظ :

فدعها : اتركها . **بجسرة** : بناقة عظيمة قوية . **كهمك** : كما تريد وتطلب في قوتها وجسارتها على السير وصبرها عليه . بالرداف : الرداف جمع رديف وهو الذي ترتدفه وراءك . والرداف أيضاً هو موضع ركوب الرديف . خبيب : نوع من إسراع الإبل في السير ، تقول خبّ البعير خبّاً وخبباً وخبيباً .

المعنى :

أي اترك هذه المرأة البعيدة المنال وسل نفسك عنها بالرحلة على ناقة عظيمة قوية قادرة على السير تعطيك منه مرادك وهي من قوتها تستطيع ان تخب خبيباً حينما يكون أكثر من راكب واحد فوقها .

إذا فسرت الرداف : جمع رديف فالمعنى أنها لها إسراع بالمرتدفين فوقها .

وإذا فسرت الرداف بموضع ركوب الرديف فالمعنى أنها لها إسراع بمحل الرديف لا تجده ثقيلاً عن قوتها عليه .

هذا ولا يخفى أن انتقال الشاعر من وصف المحبوبة المنعمة والفكاهة بحديث النساء إلى ركوب ناقة جسرة تسرع بالرديفين في الصحراء يحدث جواً من الوحشة والحسرات مما يدعو السامع إلى العطف والرثاء على الشاعر الذي أخفق في الحب ويلتمس العزاء .

١٢) إلى الْحَارِثِ الْوَهَّابِ أَعْمَلْتُ نَاقَتِي
لِكَلْكَلِهَا وَالْقُصْرَيَيْنِ وَجِيبُ

الألفاظ :

الحارث تُكْتب بالألف وبدون ألف هكذا : الحرث وهو الحرث بن أبي شمّر من بني جَفْنَةَ مُلُوك غسّان وكانوا نصارى تابعين لملك الروم بالقسطنطينية . **أعملت ناقتي** : أي سقتها وحثثتها على السير . **لكلكلها** : الكلكل عند موضع الصدر من البعير . **والقُصْرَيَيْن** : مثنى القُصْرى مجرور بالعطف على المجرور وعلامة الجر الياء بدلاً من الكسرة . القصرى : هي الضِّلَعُ السفلى القصيرة التي لا تصل إلى الظهر . ويقال لها القُصَيْرى أيضاً : والمثنى في حالة الرفع : القُصْرَيانِ والقُصَيْرَيانِ . وجِيبُ : اضطراب ، تقول وجب القلب يجب وجيباً اضطرب .

المعنى :

إلى الحارث العظيم الهبات الجواد حثثْتُ ناقتي في السير فسارت ولكلكلها وأضلاعها القصار اضطراب من حركتها وشدة سيرها .

هذا أول القسم الثاني من قصيدة علقمة وهو نعت الرحلة . وقد ربطه الشاعر ربطاً محكماً بقسم النسيب من جهة المعنى والروح والصور البيانية ونَغَم الشّعر ، أما من جهة المعنى فإن هذه الرحلة وسيلة للسلوى كما ذكرنا آنفاً . وأما من جهة الرّوح فلأن المحبوبة كانت مُترفة بَخيلة عسيرة النوال أُنْثى تُؤْثِرُ بطبيعتها الغنى وشَرْخ الشباب وقد صرف الشاعر نفسه عنها ليرتحل إلى سيّدٍ فحل كريم وهّاب . وأما من جهة الصور البيانية فصوره في النسيب كلها تؤكّد معنى الحجاب وعدم الاستطاعة وهنا تَنْفَسِحُ الصورُ بالأمل ، فالنّاقةُ تحتمل الرديف وتسرع به وهو يحثها حتى تضطرب ضلوعهاوكلكلها ، وأما من جهة نَغم الشعر فنغم الشاعر خافِتٌ فيه أناة في أبيات النسيب ومن شواهد ذلك قوله مثلا « وشَرْخ الشباب عندهن عجيب » فإنك تحتاج أن تقف قليلاً عند كسرة باءِ الشباب ليستقيم لك جرس الوزن . ولعلك تلاحظ كثْرة حروف المد التي تطلب نوعاً من التؤدة مثل : فان تسألوني — بالنساء — فإنني

– بصير – بأدواء النساء – طبيبو – هذا وحين أخذ الشاعر في الحديث عن ناقته وعن الرحلة داخله نشاط وإسراع فجاء بقوله : فدعها – ثم استعمل التشديد : سلّ – الهمّ – كهمك – الوهّاب – وبالألفاظ القليلة حروف المد أو الخالية منها : بجسرة – لكلكلها – والقصريين – .

وقد كانت شعراء العرب القدماء عندما تأخذ في صفة الناقة والصحراء تشيع في ذلك روح الحيوية والاندفاع ترمز به إلى العزم والاقبال على الدأب ، كالذي فعله علقمة ههنا ولاحظ مهارة علقمة البيانية عندتنبيهه للسامعين وللحرث الغساني ممدوحه خاصة عند : « إلى الحارث الوهاب أعملت ناقتي » .

هذا وقد آثرنا في ترتيب هذه الأبيات رواية المفضل على رواية الديوان لأنها أصح وأشبه بسياق المعنى والاسلوب .

١٣) وَنَاجِيَةٍ أَفْنَى رَكِيبَ ضُلُوعِها
وَحَارِكَها تَهَجُّرٌ فَدُؤُوبُ

ملحوظة :

من عادة شعراء العرب أن يستعملوا الألفاظ القوية في نعت الناقة لتأكيد معنى الحيوية والنشاط . وفي نعت الناقة التفصيلي الدقيق إشعار بالمعرفة لها والمودة ونحو من هذا يفعله أدباء الأفرنج في نعت البحر والسفينة ، وأدباء العصر منهم ، في نعت كثير من الأدوات التي لا بد في نعتها من تخصيص وتفصيل لخلق الجو الفني المراد ؛ فعليك أيها القارىء الكريم النجيب ألاّ تَضيق ذرعاً بألفاظ علقمة ونظرائه من شعراء الجاهلية في هذا الباب . بل أنت إذا صبرت على درسها زادتك معرفة بأسرار كلامهم فأمكنك أن تلتذ بها فيعينك ذلك على تنمية ذوقك الأدبي في لغتك وصقله ، فتنمو عندك ملكة النقد والتمييز لا بالنسبة للغتك وحدها فحسب ولكن بالنسبة إلى سواها مما تتعلمه من آداب اللغات الأخرى والله المستعان .

الألفاظ :

في البيت المتقدم : **وناجية** : الواو واو رُبَّ ، أي وربَّ ناجية . **ناجية** : أي ناقة سريعة . **أفْنى رَكيب ضلوعها** : ذهب بشحم صدرها. **رَكيبَ ضُلوعها** ما ركب ضلوعها من شحم . **وحاركَها**[1] : الحارِك هو ما بين كتفي البعير والناقة قُدّام السنام . **تَهَجُّرٌ** : التهجر هو سفر الهاجرة ، أي النهار وقت الحَرّ . **دُءُوب** : استمرار وإلحاح في السير من دَأبَ يدْأب دأبا ودَأباً ودءوباً[2]، وأجْود أن تكتب الهمزة على السطر .

المعنى :

وربّ ناقة سريعة أفْنى شَحْم ضُلُوعِها والشّحْمَ الذي فيما بين كتفيها وسنامها في الموضع الذي يقال له الحارِك ، سَفَري بها في حر النهار ومواصلتي بها السير دائباً في ذلك من النهار إلى الليل .

قوله ورُب نَاجية : في ظاهرِه تقليلٌ أو تكْثير ولكن قصد الشاعر الحديث عن ناقته هو .. وكأنّ المعنى كم من ناقة يفني شحمها السير الشديد وناقتي هذه كانت عظيمة الجسم في أول الرحلة ولكن الدءوب أكل شحمها شأنها في ذلك شأن غيرها من الإبل إلا أنها مع ذلك نجيبة نشيطة لها خبيب بالرديفين وإليك أيها الملك الأريحي الوهاب أعملتها .

١٤) وَتُصْبحُ عن غِبِّ السُّرَى وَكَأَنَّها
مُوَلَّعَةٌ تَخْشَى الْقَنِيصَ شَبُوب

١٥) تَعَفَّقَ بالأَرْطَى لَهـا وأَرادَهـا
رِجالٌ فبذَّتْ نَبْلَهُمْ وَكَلِيبُ

(١) حاركَها مَفْعُولٌ به منصوب ، أي أفنى حاركها .

(٢) دأب بسكون الهمزة أي عادة — هذا دأبه أي عادته وشأنه ويحرك .

الألفاظ :

عن غبّ السرى : غبّ الشيء عاقبته . **عن** تجيء بمعنى بعد وهي هنا بمعنى بعد مثل ما في قوله تعالى : « لتركبنّ طبقاً عن طبق » أي حال بعد حال . **السّرى** سير الليل ، تقول أسرى وسرى (رباعي وثلاثي) . عن غبّ السرى : أي بعد عاقبة سير الليل أي بعد جهدها في سير الليل . **مولّعة** : بقرة وحشية ذات ألوان في جلدها . التوليع ألوان مختلفة في جلد البقرة الوحشية ، وقالوا هو نقط سود في قوائمها .

القنيص : الصَّيْد . والقنيص أيضاً تجيء بمعنى الصائد ، والمعنى ههنا بهما متقارب .

شَبُوب : شابّة مكتملة النماء من البقر . **تَعَفّق** : اختبأ واستتر من أجل الصيد .

الأرْطي : ضرب من الشجر مفرده أرطاة . **بَذّت** : سبقت وغلبت (الفعل . بَذّ يَبُذّ) .

كَلِيب : جمع كلب . جماعة الكلاب .

رجالٌ فاعل أرادها وفاعل تَعَفّق محذوف دلّ عليه فاعل أرادها . أو رجالٌ فاعل تعفق واغنى عن تكراره مع أرادها . وإعراب الفاعل والفعلين موضوع اختلاف بين النحويين والذي ذكرناه تلخيص مختصر له .

المعنى :

هذه الناقة مع ان السرى قد ذهب بشحم ضلوعها والشحم الذي أمام سنامها ، تصبح بعد سَيْر الليل وهي خفيفة سريعة شَهْمَةُ القلب كأنها بقرة وحشية ذات ألوان مختلفة في جلدها شابة مكتملة القوة ، أوجس قلبها خوفاً من الصائدين .

وقد استتر رجال من الصائدين لها خلف شجر الأرطي ورموها بالنبل

وأرسلوا عليها كلاب الصيد فسبقت نبلهم جرياً فلم تصبها وسبقت كلابهم هرباً فلم تدركها . ناقتي مثل هذه البقرة الوحشية في السرعة والنجاء .

١٦) لِتُبْلِغَنِي دَارَ ٱمْرِئٍ كانَ نـائِياً
فَقَد قَرَّبَتْنِي من نَداكَ قَرُوبُ

الألفاظ :

نائياً : بعيداً من نأى ينأى أي بَعُد يَبْعُد .من نداك : من كرمك وسخائك **قَرُوب** : اسم ناقته[1] .

المعنى :

أي اعملت ناقتي وحثثتها في السير لتبلغني دار امرىء كان بعيداً عني ـ بعيداً في داره لأن قومي بمشرق الجزيرة وقَوْمُه بالشأم ، وبعيداً بمودته

---

(١) ذكر بعضهم ان قول الشاعر « قروب » صيغة المبالغة من « قارب » وهذا قول لا شاهد عليه في مراجع اللغة . واستبعد المستشرق « ليال » ان تكون « قروب » اسماً لناقته لأن الجاهليين كما زعم لم يكونوا يستعملون الجناس وهذا غير صحيح . إذ الجناس قديم في لغة العرب ؛ قال زهير :

لمن طلل بالجزع عافٍ منازله عفا الرس منه فالرسيس فعاقله

الرس فالرسيس ، جناس وهما موضعان . وقال النابغة :

وأقطع الخَرْقَ بالخَرْقاء قد جَعَلَتْ بعد الكلال تشكي الأين والسّأما

فالخرْق الصحراء والخرقاء الناقة وهذا جناس كما ترى . وقال تعالى (سورة النمل) : « ربّ إني ظلمت نفسي وأسلمتُ مع سليمانَ لله رب العالمين » ... ومجانسة الأعلام كما في الآية وكما في شعر علقمة من أكثر الجناس في الكلام القديم . وكون « قروب » علم ناقة علقمة قاله الأعلم الشنتمري رحمه الله ، وهو أحد الشراح الكبار وقوله نقل ينبغي أن نعوّل عليه دون سواه ، والله تعالى أعلم .

لأنه ملك الشأم وقومي كانوا موالين لملك الحيرة . فالآن قد قربتني ناقتي هذه التي اسمها قَرُوب من كرمك وسخائك .

لاحِظْ استعمال الشاعر الابهام أول الأمر وهو يناسب قوله : كان نائياً . ثم دنوه من الممدوح وحديثه إليه بكاف الخطاب وتأنيسه له بذكر اسم ناقته وما يتضمن ذلك من معنى العطف عليها والشكر لها .

هذا ثم اعلم أصلحك الله أن للشعر العربي تأليفاً مُحْكم الانسجام كتأليف الموسيقا المتقن تتناغى فيه المعاني والأنغام .. تأمل قوله « لتُبْلِغَنِّي دَارَ امْرِىءٍ كان نائياً » ... أليس فيه صدى من قوله : « يُكَلِّفني لَيْلَى وقد شَطَّ وَلْيُها » أي نَأَتْ ... وذلك قلبه إذ كان يُكَلِّفه المستحيل فعدل هو عنه إلى تكليف ناقته قروب أمراً فيه مشقة عظيمة ولكنه بَعْدُ أيسر ، الا وهو أن تبلغ دار امرىءٍ ناء هو الحارث ، فخفت إليه قَرُوب .

١٧) إليكَ أَبيْتَ اللَّعْنَ كانَ وَجِيفُها
بمُشْتَبِهاتٍ هَوْلُهُنَّ مَهِيبُ

١٨) تَتَبَّعُ أَفْيَاءَ الظِّلالِ عَشِيَّةً
على طُرُقٍ كَأَنَّهُنَّ سُبُوبُ[1]

الألفاظ :

« **أبَيْتَ اللَّعْنَ** » تحيّة مُلوك الحيرة جاء بها علقمة هنا في خطابه لملك الشأم إكراماً له لأنها التحية التي يعرفها للملوك بحسب مبلغ علمه . وكانت ملوك الشأم لا تقول أبَيْتَ اللعن ولكن تقول « يا خَيْرَ الفتيان » . ومعنى أبيت اللعن أي أبيت أن تفعل شيئاً قبيحاً يلعنك الناس من أجله. **وَجِيفُها** : الوجيف والوَجْف ضَرْبٌ من سير الإبل كأنه فيه اضطراب . أي اهتزاز — في السير . تقول

(١) لم يرو هذا البيت المفضل وهو في الديوان .

وجف البعير يَجِفُ وأوْجَفْتُه أنا .

بمشتبهات : بطرق مشتبهات يخشى المرء عند اشتباهها الضلال . **تَتَبّعُ** أي تَتَتَبّعَ **أفياءَ الظّلال** . : أفياء جمْع فيْء بفتح الفاء وسكون الياء وهمزة على السطر والفَيْءُ هو الظل الذي يكون بعد زوال الشمس ، الذي نسميه ظِلّ الظهر. **سُبُوب** جمع سِبّ بكسر السين وتشديد الباء أي ثياب رقيقات أو حبال ـ السِّبّ الثوب الرقيق والحبل أيضاً .

المعنى :

إليك أيها الملك ـ عشت عزيزاً بَعيداً عن اللوم ـ كان سير هذه الناقة مهتزة في طرق متشابهات يشعر المرء بهولهن من خوف ان يضل فيهلك .

كانت هذه الناقة تسير دائبة وتَتَبّعُ ظلال ما بعد الزوال الممتدة من الصخور والكثبان عند أواخر النهار ؛ والطّرُق المشتبهات منتسجاتٌ أمامها ممتدات متداخلات كأنهن قطع من الثياب الرقيقات الخافيات النسج أو كأنهن حبالٌ ممدودات تلاقى وتفترِق شديدات الاشتباه .

لاحظ قوله : « تَتَبّعُ أفياء الظلال عشية » ... ألست تجد في اللفظ «عشية» صدى من قوله من قبل « تخِفّ به جُنْحَ العشي جنوب » ... وكأن في البيت تشبيهاً خفياً جداً للناقة وما حولها من الطرق وحالة تَتَبّعِها الظّلالَ بالسحابة الرقيقة العارضة في السماء التي تخِفّ بها ريح الجنوب ... فهذا كأنه صدى معنوي من صورة الدعاء الذي دعا به للمحبوبة « سقَاكِ يمانٍ ذو حَبِيٍّ وعارِضٌ البيت » .

ولاحظ تكرار الهاءات في قوله : « وجيفُها بمشتبهاتٍ هَوْلُهن مهيب » وما يشتمل عليه ذلك من ايحاء الهمس بمعنى الخوف والله تعالى أعلم .

١٩) هَدَاني إلَيْـكَ الفَرْقَدَانِ ولاحِبٌ
لَهُ فَوْقَ أَصْواءِ المتانِ عُلُوبُ

٢٠) بِهَا جِيَفُ الْحَسْرَى فَأَمَّـا عِظامُها
فبِيضٌ وأَمّا جِلْدُهـا فَصَلِيبُ

الألفاظ :

الفَرْقَدان : نجمان. **لاحب** : طريق واضح . **أصواء** : جمع صُوّة[1] والصُّوّةُ علَمُ الطريق يُجْعَل من أكوام حجارة[2] . **والمِتانُ** هي ما صلب من الأرض وارتفع المفرد : مَتْن ويجمع أيضاً على مُتُون . **عُلُوب** : آثار مفردها عَلْب. **جِيَفُ الْحَسْرى** : جيف جمع جيفة وهي جثة الميْتة إذا أنْتنت . **الحسرى** جمع حسير وتقول حَسَر البعير يَحْسُر فهو حَسِير إذا أعيا وكل وذَهَبت قوته .

المعنى :

كان دليلي بالليل نجم الفَرْقَدَيْنِ وبالنهار سلكت طريقاً واضحاً آثاره تبدو فوق علامات الطريق – في الأماكن الصلبة المرتفعة . وهناك جيف الإبل التي سقطت من الاعياء عظامها بيض ، (إذ قد نَهشت السباع والجوارح لحمها) وجلودها صليبة يابسة .

لاحظ أن الشاعر قد احتفظ بلفظ الهاء في قوله « هداني » صدى من الهاءات في قوله « وجيفها – هولهن مهيب » ثم أخذ من بعد في تفصيل معاني الهول التي قاساها ... وقد كان – كما تعلم – أوجب على الممدوح حق العطف على ناقته للمشقات التي لقيتها فالآن أخذ يوجب عليه حق العطف عليه هو ... ولا شك أن صورة جيف الحسرى بعظامها البيض وجلودها اليابسة فوق حجارة الطريق شيء مرعب موحش .

---

(١) قالوا صوة جمعها صُوى بضم الصاد بعدها واو مفتوحة وألف لينة وأصواء جمع صوى والذي أثبتنا قول المفضل الضبي .

(٢) قالوا الصوى والأصواء الأماكن الخشنة وهذا جائز والأول قول أبي عمرو بن العلاء .

٢١) فَأَوْرَدتُّها مـاءً كـأَنَّ جِمَامَهُ
من الأَجْنِ حِنَّاءٌ مَعاً وصَبِيبُ[1]
٢٢) تُرادُ عـلى دِمْنِ الْحِياضِ فإِنْ تَعَفْ
فَإِنَّ المُنَدَّى رِحْلَةٌ فَركُوبُ

الألفاظ :

جمامه : مُعْظم مائه ، جمّ الماء معظمه وجمام : جمع جمّ . **الأجن** : التغير تقول أجِنَ الماءُ بفتح الجيم وبكسر الجيم يأجُن بضمها وكسرها وفتحها أجْنا بسكونها وفتحها أيضاً وأُجُونا ..ثلاثة مصادر أجْنَا أجَنَا أُجُوناً **حِنّاء** : الحِنّاء معروفة وعنى هنا لونها الأحمر . **والصبيب** : صبغ يتخذ من النبات لونه أحمر يضرب إلى السواد . **تراد على** : تُعْرَض على ، أي تعرض على ماء الحياض الذي سيصفه من بعد لتشرب منه . ويروى **ترادى على دِمْن الحياض** : أي تُدَارى وتُرَاوَدُ لكي تشرب . **دمن الحياض** : وسخ الحياض الذي ألقته فيها الريح من بَعَرٍ وتراب . **الْمُنَدَّى** : ترك الإبل ترعى حول الحَوْض لتشرب مرة ثانية .

المعنى :

بَعْدَ أن وصف لنا الشاعر الجيف وأشعرنا بخوف الموت ذكرلنا أنه قد كان امرأً حازماً حمل نفسه وناقته على الشرب من الماء المتغير الكريه بالصحراء لكي يقدرا على مواصلة السير ولا ينضافا هما أيضاً إلى جيف الحسرى التي فوق الطريق ... فقال : فأوردتُ ناقتي ماءً كانَ في الحوض من تَغَيّره كأنما هو حناء أحمر فاقع وصبيبٌ أحمر أدْكَنُ قد خُلِطا معاً ... لما فيه من البعر والتراب وكانت ناقتي تراد على الشرب من بقايا ماء الحياض ذات البعر والتراب

(١) هذا البيت ليس في رواية المفضل وهو في الديوان واستشهد به الجوهري في الصحاح .

ولم يكن لها إذا عافت من فرصة مرعى ترعاها حول الحوض لتشرب مرة ثانية غير الرحلة والركوب . هذا ويقال أن الإبل من طبعها ان تتعزز وتعاف الماء القذر ، فناقة علقمة المسكينة لم يترك لها حزمه وهول الدّرْب الذي سلكه من فرصة لكي تتعزّز أو تعاف . إلى ههنا انتهى القسم الثاني من القصيدة — وهو قسم الرحلة .

٢٣) فلا تَحْرِمَنِّي نَائِـلًا عَنْ جَنَابَةٍ
فَإِنِّي امْرُؤٌ وَسْطَ الْقِبابِ غَرِيبُ[1]

٢٤) وأَنْتَ امْرُؤٌ أَفْضَتْ إِلَيْكَ أَمانَتِي
وقَبْلَكَ رَبَّتْنِي فَضِعْتُ ربُوبُ

الألفاظ :

نائلاً : عطاء . **جنابة** : غربة . **وسط القباب** : فيها ، والقباب ، المنازل والخيام .

أفضت إليك : صارت إليك وانتهت إليك . **أمانتي** نصيحتي ويروى **أفضت إليك رِبَابَتي** : أي ملكي . **رَبّتْني** : ملكتني ، تقول رَبّه يَرُبّهُ أي صار له ملكاً وسيداً . **رُبُوب** : ملوك جمع رَبّ أي ملك وكانوا في الجاهلية يقولون للملك : الرب .

المعنى :

يقول ، بعد أن ذكر ما لقي من المشقات : فلا تحرمني أيها الملك من عطائك بعد رغبتي إليك ثم إن لي عليك حقاً آخر وهو أنني رجل غريب وسط

(١) هذا موضع البيت في ترتيب المفضل الضبي وروايته أقوى سنداً وأصح وما لم يروه من الأبيات أوردناه لأنه هو قد اختار فلعلّه حذف على سبيل الاختيار والذي في الديوان ما رووه للشاعر والله أعلم .

قبابك فهذا مع قصدي أن أغترب من دياري إليك يؤهلني لرعايتك ثم إنني أيها الملك قد انتهت نصيحتي إليك فأنا الآن رعية لك أنصح لك وأطيع ، وقبلك قد كانت لي ملوك أنا في طاعتهم ونصيحتي لهم والآن قد صرت في ضيعة بعد إذ هلكوا ، إلا أن ترعى حقي وتحفظه وتضمني إليك وأنت لذلك أهل وبه جدير ... (وهذا مفهوم من سياق الحديث) ومن ههنا يبتدىء القسم الثالث من القصيدة وهو يتضمن المدح والمسألة التي من أجلها أنشئت القصيدة .

وهذا القسم مربوط رَبْطاً محكماً بالذي قبله من جهة المعنى والروح والصور البيانية ونغم الشعر . أما من جهة المعنى فلأنه أوجب على الممدوح حق الاستماع إليه وإكرامه بسبب قصده إليه وتكلّفه السفَر وأما من جهة الرّوح فلأنه فرّ يطلب السلوى والناقة كانت وسيلة الفرار والممدوح هو الملجأ والمفر وأما من جهة الصور البيانية فلأن مهالك الصحراء من طُرُقٍ مشتبهة وجيفٍ وماء مُتَغيّر ونشاطَ ناقته وتعبَها واجتهادَه هو ووحشتَه واهتداءَه بالنجم كل أولئك كُنّ وسيلة الوصول إلى الممدوح وهو الأمل ، وقد صرح الشاعر بهذا عند أول الحديث عن الرحلة – إلى الحرث الوهاب فنبهه به ثم قوله .. إليك أبيت اللّعن .. وقوله : هداني إليك الفرقدان ... وأما من جهة نغم الشعر فالطريقة التي تحدث بها الشاعر عن نفسه وعن الممدوح تراوح بين الالتفات إلى الغائب والمواجهة بالخطاب .. ولا ريب أنك لاحظت قوة استعمال الضمير المنفصل في قوله « وأنت امروءٌ أفضت إليك أمانتي » وما فيه من الصدى لجرس قوله في أول حديثه عن الرحلة « إلى الحرث الوهاب » ... ثم قوله من بعد « لِتُبْلِغني دارَ امْرِىءٍ كان نائياً » ثم جاء بضمير المخاطب المتصل (الكاف) في « إليك أبيت اللعن » ثم واجهه بالخطاب في قوله « فلا تحرِمنّي وأنْتَ امروءٌ » وكرر ضمير المتكلم لينبه على نفسه – فلا تحرمني – أمانتي – ربتني – فضعتُ . وقد لاحظنا من قبل افتنانه في تكرار الهاءات في « هوهن مهيب » واستعماله الجناس في « قربتني من نداك قروب » ولا ريب أنك لاحظت السجع في قوله هداني ... الفرقدانِ ... المتانِ وهلم جرا .

٢٥) فَأَدَّتْ بَنُو كَعْبِ بْنِ عَوْفٍ رَبِيبَهَـا
وغُودِرَ فِي بَعْضِ الْجُنُودِ رَبِيبُ

٢٦) فَوَاللهِ لَوْلَا فَـارِسُ الْجَوْنِ مِنْهُمُ
لآبُوا خَزَايا والْإِيابُ حَبِيبُ

الألفاظ :

كعب بن عَوْف من رهط الحارث الغساني وهم القوم الذين كان مُسْتَرْضعاً فيهم وكان ذلك من عادة أشراف العرب ان تسترضع أبناؤهم بالبادية إن كانوا هم مقيمين بالحضر مثل أهل مكة وملوك الحيرة وغسان . **الجَوْن** : الحصان الأسود اللّون . **خَزَايا** جمع خزيان أي بخيْبَةٍ وخِزْيٍ .

المعنى :

لما قال الشاعر « وقَبْلك ربّتني فضِعْتُ رُبوب » أخذ يُبيّن قصته في اختصار كيف ضاع هو بهلاك سادته . ولما كان عربياً عزيز النفس لا يدع ولاءَهُ لقومه وللملك المنذر بن ماء السماء سيد قومه الذي مات قتيلاً يوم عَيْنِ أُباغ ، اختصر الاشارة إلى ما كان من هزيمته اختصاراً ، فقال : أما بنو كعب بن عوف فقد أوصلوا الرّجل الذي ربّوه وهو الحارث سليماً منتصراً وقد غُودِرَ رَبيبٌ آخر ربّاه قوم آخرون قتيلا في بعض الجنود معه... ويُفْهَمُ أن مرادَه: هذا الرّبيبُ الآخر كان سيّد قَوْمي المنذر بن ماء السماء فهذا سبب ضياعي وصيرورة أمانتي وطاعتي إليك . ثمّ ليدفع الشاعر عن نَفْسه أي معنى من معاني المذلة والانكسار قال في إباء وكبرياء ان جموع غسان كانوا سيُهْزَمُون لولا فارس الحصان الأسود منهم.. لولاه لآبوا خزايا ولكان الإياب فارّين بلا انتصار حبيباً جداً إليهم ولعدّوه غنيمة ولكن فارس الحصان الجون ببسالته ومقدرته الحربية أنقذهم من الخِزْي وأعطاهم الانتصار وأصابت قومي الهزيمة .

وجعل الشاعر هذا مدخلاً لمدح الحارث لِنَعْتِ البطولة العظيمة التي كانت منه في يوم عَيْن أباغ .

٢٧) تُقَدِّمُهُ حَتَّى تَغِيبَ حُجُولُـــهُ
وأَنْتَ لِبَيْضِ الدَّارِعينَ ضَرُوبُ

٢٨) مُظاهِرُ سِرْبَالَيْ حَدِيــدٍ عَلَيْهِما
عَقِيلَا سُيوفٍ مِخْذَمٌ وَرَسُوبُ

٢٩) فَقَــاتَلْتَهُمْ حَتَّى اتَّقَوْكَ بِكَبْشِهِمْ
وَقَدْ حَانَ مِنْ شَمْسِ النَّهارِ غُرُوبُ

٣٠) تَجُودُ بِنَفْسٍ لا يُجَــادُ بِمِثْلِها
وأَنْتَ بِها يَوْمَ اللِّقاءِ خَصِيبُ(١)

الألفاظ :

حجوله : ما في رجليه ويديه من بياض ولونه كما تقدم أسود . **بَيْض الدارعين** : خُوذات أصْحاب الدروع . **البَيْضة** الخُوذَة التي تجعل وقاية للرأس في الحرب . الدارعين : الذين عليهم الدروع . **ضَرُوب** : ضرّاب . **مظاهِرُ سِرْبالَيْ حَديدٍ** : ظَاهَرَ الرجل بين درعين أي لبس درعين معاً هذه فوق الأخرى(٢) . **سِرْبالَيْ حَديدٍ** : ثوبين من حديد أي درعين ، والسربال هو القميص والسرابيل الثياب فإن كانت من الحديد فهي الدروع قال تعالى (سورة النحل) : « وجعل لكم سرابيل تقيكم الحرّ وسرابيل تقيكم

(١) لم يروه المفضل .
(٢) الدرع التي من الحديد مؤنثة ولكن الدرع بمعنى قميص المرأة مذكر .

بأسكم »[١] . وإذا ظاهر الفارس بين درعين دل ذلك على كمال استعداده وقوة احتماله لأن الدرع ثقيلة والحديد يَحْمَى في الحر وقت القتال . عقيلا سيوف : سيفان كريمان من السيوف ، العقيل من الأشياء الكريم والعقيلة الكريمة ولذلك يقال للمرأة الحرة عقيلة . **مِخْذَمٌ ورسوب** : **المخذم** الذي يقطع قطعاً فيفصل ما يقطعه والرّسُوب هو الذي يغوص غوصاً في ما يقطعه . بكبشهم : بفارسهم كبش الكتيبة : فارسها . **خصيب** : كثير الشجاعة جواد بها ويروى : تطيب أي تجود .

وقالوا كان الحارث بن أبي شمّر الغساني إذا خرج للحرْب تقلد سيفين .

وقوله مِخْذم مرفوعة عطف بيان لقوله « عقيلا سيوف » أو بدل .

المعنى :

يقول الشاعر يخاطب الحارث : هجمت تقدم حصانك الأسود في الحرب حتى تغيب حجوله البيض في الغبار والدم وأنت ضرّاب لرؤوس الفرسان الذين عليهم الدروع تضربهم ضرباً فوق الخوذات وأنت عليك درعان من الحديد ومتقلد سيفين قاطعين أحدهما يفصل ما يقطعه والآخر يغوص ويَبْري العظم برياً ، فقاتلت القوم من أول الصّباح إلى أن حان وقتُ المغيب . وحينئذ قدّموا فارسهم يتّقونك به ، فقتلته وانهزموا ، وأنت إذ أقدمت على فارسهم جدت بنفسك العزيزة التي بمثلها لايجاد ولكنّك من شجاعتك تفعلُ ذلك يوم الحرب.

هنا كما ترى أخذ علقمة في وصف المعركة . وقد بدأهُ بتنبيه السامع إلى بطلها فارس الحصان الجون في قوله :

فَوَاللهِ لَوْلَا فَارِسُ الْجَوْنِ منهُمُ
لآبُوا خَزَايا والإيابُ حَبِيبُ

ثم أقبل بعد الإشارة إليه من بعيد على مخاطبته . ثم جاء به وبحصانه فجعلهما

(١) أي ثياباً تقيكم الحر ودروعاً تقيكم البأس والشدة في الحرب .

في مقدمة صورة المعركة ... فأنت ترى أمامك فارساً مُشْرِفاً على حصان يهجم وقوائمه غائبة في الغبار وهو مرتفع يضرب رؤوسَ الدارعين ثم قد تقدم إليه فارس منهم وقومه وراءه يتقون به هذا البطل .

ثم ينتقل الشاعر من تصوير الحارث واقدامه وبطولته إلى تصوير المعركة كلها وتصوير قوم الملك وهم حافون به يستمدون من شجاعته ويستبسلون من حوله ومن ورائه .

٣١) تَخَشْخَشُ أَبْدانُ الحَديدِ عَلَيْهِمُ
كما خَشْخَشَتْ يُبْسَ الحَصادِ جَنُوبُ(١)

الألفاظ :

تَخَشْخَشُ أي تتخشخش أي لها صوت خَشْخَشة . **أبدان الحديد** : الدروع القصيرة الواحدة بَدَن . **يُبْسَ الحِصَاد** بضم الياء من **يبس** وفتحها وفتح صاد الحصاد وكسرها : أي ما كان يبيساً وقت الحصاد . **جَنُوب** : ريح الجنوب .

المعنى :

لدروعهم القصيرة خشخشة وهم ملتفون في القتال بعضهم يضرب بعضاً أشبه شيء بصوت زرع الحصاد اليابس حين تحركه الريح الجنوبية .

٣٢) وَقَاتَلَ مِنْ غَسَّانَ أَهْـلُ حِفَاظِها
وَهِنْبٌ وَقَاسٌ جَالَدَتْ وَشَبِيبُ

---

(١) لك في كلمة عليهم كسر الميم وضمها والهاء مكسورة في الحالتين ويجوز ضمها في حالة ضم الميم هنا .

الألفاظ :

غسان قبيلة الملك الكبيرة **وهنب وقاس وشبيب** كلها من القبائل الموالية له . **أهل حفاظها :** أهل الحفاظ هم أهل المحاماة والغَضَبِ على الشرف وكل ما ينبغي ان يدافع عنه .

المعنى :

بعد أن أعطانا الشاعر صورة شاملة للقتال ، لفت نظرنا للمستبسلين الذين كانوا يقاتلون دون الملك ومن حوله فقال : وقاتل في ذلك اليوم من بني غسان أهل الحفاظ والدفاع قتالاً شديداً وقاتلت أيضاً قبائل هنب وقاس وشبيب وجالدوا أيّما جلاد .

قالوا ويروى ان سيدتنا عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أشرفت من هودجها يوم الجمل[1] ونظرت إلى القوم وهم يقتتلون حولها وأنشدت هذا البيت ، والله تعالى أعلم :

٣٣) كَأَنَّ رِجَالَ الأَوْسِ تَحْتَ لَبَانِه
وما جَمَّعَتْ جَلٌّ مَعاً وَعَتِيبُ

الألفاظ :

الأوْس وجَلّ وعتيب كل هذه القبائل كانت في طاعة الحارث بن أبي شمّر . **لبانه :** يعني لبان فرسه ، واللّبَانُ هو صدر الحصان .

المعنى :

كأن رجال هذه القبائل ، الأوس ومن جمّعته قبيلتا جَلّ وعتيب معاً كأنّ هؤلاء جميعاً تحت صدر حصان الملك الحارث حافين[2] بحزام صَدْرِ حصانه إذ هم يقاتلون من حوله .

---

(١) كان يوم الجمل في أول خلافة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب سنة ٣٦ هـ .

(٢) منصوبة على الحال .

لاحظ أن الشاعر بعد أن أعطانا صورة الحرث مُشْرِفاً على أعدائه وهم متضائلون وهو يضرب رؤوس فرسانهم وهم قد اتقوه بقائدهم ، وبعد أن أسمعنا صوت الدروع وهي لها خشخشة مثل خشخشة يبيس الحصاد في الريح ، لفت نظرنا إلى جنده من بني غسان وهنب وشبيب وهم يجالدون دونه ، ثم خصّص رجال الأوس وجلّ وعتيب المحيطين جداً به اللاصقين يقاتلون من حوله وحصانه مشرف وكأنهم جميعاً تحت صدر ذلك الحصان .

٣٤) رَغَا فَوْقَهُمْ سَقْبُ السَّمَاءِ فَدَاحِضٌ
بِشِكَّتِهِ لَمْ يُسْتَلَبْ وَسَلِيبُ

الألفاظ :

سَقْبُ السّماءِ : السّقْب هو ولد الإبل . وعنى الشاعر ههنا ولد ناقة سيدنا صالح عليه السلام لأنه لما رغا ثلاث مرات كان ذلك نذيراً بهلاك ثمود . **فقوله رَغَا فَوْقَهم سَقْب السماء** : أي حلت بهم الكارثة . **فداحض بشكّته** : فساقط على الأرض وسلاحه عليه . **دَاحِض** أصله من دَحَضَ يَدْحَض إذا انزلق أو إذا فَحَص برجليه والقتيل حين يسقط قد يفحص برجليه **والشّكّة** بكسر الشين وتشديد الكاف مفتوحةً السّلاح . **سليب** : مسلوب سلبه الأعداء ثيابه ودرعه وسلاحه .

المعنى :

يقول صاح عليهم ولد ناقة صالح وأصابهم ما أصاب ثمود وجاءتهم الكارثة وحل بهم الهلاك فهذا منزلق ساقط عليه سلاحه وهو يفحص برجليه وذلك قد سلبوه سلاحه فجثته بالعراء .

٣٥) كَأَنَّهُمُ صَابَتْ عَلَيْهِمْ سَحَابَةٌ
صَوَاعِقُهَا لِطَيْرِهِنَّ دَبِيبُ

الألفاظ :

صابت : صابت السحابة تصوب صوباً إذا أمطرت .

المعنى :

لما جعل الهلاك الذي حل بهم كأنما رغا عليهم ولد ناقة ثمود بقدر من السماء جعل الهلاك الذي حلّ بهم كأنه سحابة عذاب من السماء هطلت عليهم لها صواعق مهلكات مفزعات لا تقدر الطير معها على الطيران ولكن تدبّ دبيباً على وجه الأرض خوفاً وهلعاً .

هذا ولا ريب أنك في صورة الفارس الدّاحض بسلاحه والذي هو سليب وجثّتُهُ بالعراء وهذه الطير التي تدبّ دبيباً لا تقدر على الطيران من شدة الهول ... لا ريب أنك واجدٌ صدًى من قوله من قبل :

بِهَا جِيَفُ الْحَسْرَى فَأَمَّا عِظَامُها
فَبِيضٌ وَأَمَّـا جِلْدُها فَصَلِيبُ

فاجعل العظام البيض في مقابلة الجُثث المسلوبات ، والجلودَ اليابسة في مقابلة الداحضين يفحصون بأرجلهم وعليهم الدروع ... ثمّ الخيالُ بعْدُ يكمل لك صورة الهلاك من أشلاء متناثرات ودماء ... جوٌّ موحش رهيب تُلْتَمس منه النجاة .

٣٦) فَلَمْ يَنْجُ إِلَّا شَطْبَةٌ بِلِجَامِها
وإلا طِمِرٌّ كَالْقَنَاةِ نَجِيبُ

٣٧) وَإِلَّا كَمِيٌّ ذُو حِفَاظٍ كَأَنَّهُ
بِمَا ٱبْتَلَّ مِنْ حَدِّ الظُّبَاتِ خَضِيبُ

الألفاظ :

فلم ينج : ويروى فلم تنج وكلا اللفظين صحيح وحذف التاء مع الاستثناء بإلا أجود ، تقول ما حضر إلا فاطمة وما حضرت إلا فاطمة . **شطبة** بفتح الشين وكسرها : فرَسٌ طويلة . **بلجامها** : وهي ملجمة . **طِمِرٌّ** : بكسرتين وراء مشددة أي حصان خفيف وثّاب . **نجيب** : كريم شهم . **كميّ** : فارس مدجج في السلاح . **ذو حفاظ** : ذو محاماة وغضب على الشرف ودفاع عنه . **الظبات** : جمع ظُبة وظبة السيف شفرته وحده . **خضيب** : مخضوب .

المعنى :

لما حلت الكارثة لم ينج منها إلا فرس طويلة سريعة نبيلة وهي ملجمة وإلا حصان خفيف وثاب ذكي الفؤاد نجيب . وإلا فارس غضوب على الشرف قد قاتل فسال عليه الدم من شفرات السيوف فابتل به وكأنه بالدم مخضوب ...

لاحظ أن هذا الفارس نجا بالإقدام العابس والقتال والآخرين كانت نجاتهما بالهرب . وهذا الكمي ذو الحفاظ ، هذا الفارس المدجج في السلاح الذي كأنه مخضوب بالدم هو فارس الجون ... هو الملك الحارث بن أبي شمّر . وإلى ههنا ينتهي نعت المعركة ... لوحة مقدمتها صورة الحارث الملك المقدام وحصانه الأدهم وجنده الباسلين وعدوه الذي سقط والأعداء الآخرون تَحُفّ بهم صواعق الموت ، والطيْر تَدِب من بعيد تنتظر الأشلاء وهناك داحِض بشكّته وآخر مسلوبٌ وحصان وثّاب يَشْتَدّ هرباً قد نجا وفرس بعيدة طويلة تَنْهَب الأرض .

وبعد هذا الوصف الجيّد والمدح المطرب الذي لم يخل من نَفَس حَسَرةٍ وَوَحْشَةٍ خَفِيٍّ إذ هؤلاء القتلى فيهم ملك الشاعر المنذر وفي الأسرى الذين لم ينجوا بعضُ قومه تميم وأخوه شأس ... بعد هذا اتجه علقمة إلى الملك الحارث بخطاب مباشر فيه مدح صريح جعله تمهيداً للمسألة التي من أجلها أنشئت هذه القصيدة :

٣٨) وأَنتَ الَّذِي آثارُهُ في عَدُوِّه
مِن الْبُؤْسِ والنُّعْمى لَهُنَّ نُدُوبُ

الألفاظ :

ندوب بقايا ظاهرات جمع نَدَب وهو ما يبقى ظاهراً من أثر الجرح في الجلد ونَدَب جمع نَدَبَة .

المعنى :

أنت السيد الذي آثاره في عدوه ـ آثار البؤس التي تركها فيهم من ايقاع الهزيمة بهم وقتل من قتل من صناديدهم وآثار النعمى التي أنعمها عليهم من عفوه عند المقدرة وبسطه عليهم جناح الاحسان ـ كل أولئك من آثاره لهن بقايا ظاهرة معروفة لا تنكر .

وما دام الحارث هكذا فهو إذاً(١) حقاً هو الحارث الوهاب ولذلك أعمل إليه ناقته ، ولثقته أنه شَهْم جواد ، فإن أخاه شأساً سيكون له نصيب من جوده وإن شفاعته إليه فيه لن تخيب .

٣٩) وَفِي كُلِّ حَيٍّ قد خَبَطتَّ بِنِعْمَة
فَحُقَّ لِشَأْسٍ مِنْ نَدَاكَ ذَنُوبُ

٤٠) وَمَا مِثْلُهُ في النَّاسِ إلَّا أَسِيرُهُ
مُدَانٍ ولا دَانٍ لِذَاكَ قَرِيبُ

الألفاظ :

قد خبطتّ بنعمة : أي أنعمت بنعمة من دون سابق معرفة بالقوم الذين

(١) كلمة إذن تكتب هكذا (إذاً) وهكذا (إذن) والوجه الأول أجود .

أنعمت عليهم . تقول خبطتُ الرجل أي أنْعَمْتُ عليه من غير معرفة سابقة . **ذَنُوب** ، نصيب ، قال تعالى « سورة الذاريات » : (فإنّ للذين ظلَموا ذَنُوباً مِثْلَ ذَنُوبِ أصْحابهم) . **شأس** : أخو علقمة وقيل ابن أخيه .

المعنى :

انك قد أشعت معروفك في القبائل فلم يخل حي من معروف تبذله من غير معرفة سابقة بمن تبذله إليه ، فخليق بشأس أن يجد نصيباً من كرمك .

ولا أحد في الناس مثل هذا الملك يدانيه أو يقاربه في المنزلة إلا أسيره لأنه لا يهينه ولكن يكرمه ويُعزّه .

لاحظ التفات الشاعر من الخطاب إلى الغائب ههنا بغرض التنويه بذكر ممدوحه بين السامعين ثم لإشعاره وإشعارهم ان شأساً المذكور في البيت السابق إنما هو أحد الأسرى عنده وهو يريده أن يُنْعِم عليه ويفكّه .

ولا ريب أن هذا حُسْنُ مقطع أي ختامٌ جيد للقصيدة ويروى أن الحارث قد طرب عند سماع قول علقمة : « فَحُقّ لشأسٍ من نداك ذَنُوب » فقال له : « نَعَمْ وأَذْنِبَةٌ » ثم إن الحارث أنعم على الشاعر ففكّ له أخاه وأسارى قومه بني تميم وحملهم وزوّدهم وكساهم وأكرمه هو وكساه من حلل الملوك التي كانت تتباهى بها سادات العرب في المواسم . قال الفرزدق يذكر ذلك ويفتخر به :

وَهَبَ القصائدَ لِي النَّوابغُ إذ مَضَوْا
وَأَبُو يَزيدَ وذُو الْقُرُوحِ وَجَرْوَلُ (١)

(١) النوابغ : نابغة بني ذبيان وبني جعدة وأمثالهم . أبو يزيد : المخبل السعدي شاعر مُحْسِن ذو القروح : امرؤ القيس . جرْوَل : الحطيئة .

وَالْفَحْلُ عَلْقَمَةُ الَّذي كانَتْ لَهُ
حُلَلُ المُلُوكِ كَلَامُه لا يُنْحَلُ

أي لا يَقْدِر أن ينتحله غيره .

هذا ويروى ان الحارث قال لعلقمة اختر بين الحِباء الجزيل – أي الجائزة الكبيرة لك – وبين أسارى بني تميم . فقال علقمة للحارث دعني يومي هذا لأنظر في أمري . قالوا فأتاهم فأخبرهم ما قال له الملك فقالوا له أتدعنا وتسير ، قالوا فقال لهم إن الملك سيكسوكم ويحملكم ويزودكم فإذا وصلتم الحي فأعطوني الرواحل والكسوة قالوا فأجابوه إلى ذلك . وهذه القصة تحمل الطابع الأسطوري ولكنها تدل أيضاً على روح الفكاهة عند علقمة وعلى ذكائه ولا ريب ان الملك إذ كان من الكرم بحيث حمل الأسرى وزوّدهم وكساهم فإن نصيب علقمة من كرمه كان أوفر .

وبَعْدُ أيها القارىء الكريم فعسى الآن ان ترى مع ابن سلام أن هذه القصيدة حقاً من الروائع اللاتي لا يفوقهن شعر . وتم بحمد الله وعونه شرح هذه البائية وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً .

ا . هـ . في الرابع من شعبان ١٣٩٠ هـ